التعايش العربي الأمازيغي في الجزائر
تحت ظل الإسلام (الدين والمذهب واللّغة).

مختارية بن قبلية.
جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم

سجلت لنا كتب التاريخ العربية والغربية الكثير من الروايات حول علاقة العرب بالأمازيغ في الأراضي الجزائرية، ولعل المطّلع على بعض تلك الكتب يكتشف تناقضا واضحا بين ما كتبه أهل البلاد من حقائق توارثتها الأجيال، وما كتبه الآخر المتجلّي خصوصا في المستعمر الفرنسي، حيث حاول هذا الأخير تشويه صورة العربي الفاتح ووصفه بالهمجية والعنف، فاختلق القصص والحكايات لإشعال نار الفتنة بين أبناء الوطن الواحد، وجعل من الفتح الإسلامي نوعا من أنواع الاستعمار ليتساوى العربي بالفرنسي في نظر الأمازيغي، لكنّ ذلك لم ينفع، حيث تكاتف رجال الوطن الواحد ليعلنوا ثورتهم الموحّدة في الساعة الصفر من فاتح نوفمبر (الشهر11) سنة 1954م، فانطلقت أول رصاصة في نقاط مختلفة من أرض الجزائر، وكان ذلك حجّة للعالم بأسره تثبت وحدة الشعب؛ إنّها وحدة صنعها الإسلام. وللتعرّف على حقيقة تلك العلاقة التي جمعت أبناء الوطن الواحد –بالرغم من اختلاف أعراقهم– سأعمل على إعطاء نظرة حول التعايش العربي الأمازيغي تحت ظل الإسلام في الجزائر في تجربة الأمس واليوم، ملقية الضوء على مسألة وحدة الدين، وقضايا المذهب واللغة.

قبل الولوج إلى موضوعنا الأساس لا بد من التنويه أولا إلى أنّ مسألة التعايش بين مجموعة من الأجناس في الجزائر (الأمازيغ والعرب والأندلسيون والأتراك...) ليس بالأمر الخارق للعادة، وإنّما هي مجرّد تجربة ناجحة

بفضل الحفاظ على الكثير من القيم الإسلامية، كالعدل والمساواة والأخوّة والحب في الله وغيرها، وكيف لا تنجح هذه التجربة وأصحابها يعرفون جيّدا أنّ احتقار المسلم لأخيه المسلم حرام؛ لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾[1] وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أبي هريرة رضيَ الله عنه: «بحسب امرئٍ مِنَ الشَّرِّ أن يحقِرَ أَخَاه المسلِمَ». رواه مسلم[2].

وكيف لا تنجح هذه التجربة وأصحابها يعرفون أنّ الإنسان مجرّد مخلوق من تراب، لا يختلف عن أخيه الإنسان إلا بالتقوى، فإن نسي ذلك اختفت إنسانيته، ويحضرني هاهنا نصّ للشيخ محمد الغزالي رحمه الله، حيث يقول: "بعد أن صار الإنسان يحمل آثارا من صفات الله جعلته حيا ومُريدا وقادرا وعالما ومتكلّما وسميعا وبصيرا، بعد ذلك، استحّق الإنسان أن يكون خليفة الله في أرضه... إنّ الإنسان كائن عظيم حقا بَيْد أنّ عظمته ترجع إلى نسبه الأرضي المادي"[3]. لذلك نجد الناس دائما في نزاع أبدي "أساسه: أتكون الهيمنة للحيوان الرابض في دم الإنسان يتحرك بنزعات القسوة والأثرة وحدها، أم تكون الهيمنة للقلب الإنساني المتطلع إلى الكمال والسلام، والحب والإيثار؟ ذاك ما يجب أن يُعرف بجلاء"[4]، وذاك كله هو سبب سعادة المسلمين أو شقائهم.

[1] سورة الحجرات، الآية 11.

[2] يراجع، رياض الصالحين، أبو زكريا يحي بن شرف النووي الدمشقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1403هـ - 1983م، ص 443.

[3] الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، شركة الشهاب، الجزائر، ص 112.

[4] نفسه، ص 113.

تُعدّ مسألة الأخوة والحب في الله من الشروط الرئيسة لصلاح الأمّة، لذلك وصّانا الرسول الأمين صلوات الله وسلامه عليه بأن نحب بعضنا بعضا؛ حيث حدّثنا آدم: حدّثنا شعبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحبّ المرءَ لا يُحبّه إلا للهِ، وحتّى أن يُقذف في النار أحبّ إليه من أن يرجِعَ إلى الكُفرِ بعدَ إذ أنقذَهُ اللهُ، وحتى يكون الله ورسوله أَحَبَّ إليه مِمَّا سواهما»[1]. وهكذا كان حبّ الله ورسوله ثم حب المسلمين ركيزة مهمّة لإقامة تلك العلاقة المتينة بين أفراد الأمة الإسلامية، ولعلنا نلمس ذلك جليّا في أوّل تجربة تعايش حقيقية جمعت بين المهاجرين والأنصار تحت راية الإسلام[2].

قد يرى البعض أن مسألة التعايش بين أهل المدينة وضيوفهم الوافدين من مكة هي قصة تحوي في طيّاتها الكثير من الإعجاز، وقد يرى البعض أنّ ذاك الحُب الذي نسمع عنه وصل إلى درجته القصوى بفضل تواجد الرسول صلى الله عليه وسلم بين جماعات المدينة؛ "قال ابن إسحاق: وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، فقال – فيما بلغنا، ونعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يقل–: «تآخَوا في الله أخوين أخوين»[3]. ووصلنا "من خبر الأنصار يوم هاجر إليهم الناس أنّهم كانوا يختصمون على المهاجر كل يريد أن يضمه إلى نفسه حتى أنّه لم ينزل مهاجري على أنصاري إلا بالقرعة"[4]. وكانت تلك الأخوة قائمة على المساواة والحق، بل وكانوا يتوارثون فيما بينهم بعد الموت دون ذوي الأرحام، ودام ذلك إلى أن أنزل الله تعالى قوله: ﴿**وَأُولُو**

[1] صحيح البُخاري، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَردزبَه البخاري الجُعفي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 2، 1423هـ – 2002م، طبعة كاملة في مجلّد واحد، ص 1111.

[2] يراجع، الرقائق، محمد أحمد الراشد، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر، ط 2، ص 67، 68.

[3] مختصر سيرة ابن هشام (السيرة النبوية)، دار النهضة، بدون طبعة، ص 108، 109.

[4] الرسول صلى الله عليه وسلّم، سعيد حوّى، دار عمار، بيروت – عُمّان، 1408هـ – 1988م، ص187.

الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾[1] "ومن يتأمّل إلى هذه المحبة التي يستحيل أن تكون بتأثير بَشر، بل بفضل من الله ورحمته، يفهم كيف انتصر هؤلاء الأقوام على معانديهم من المشركين وأهل الكتاب مع قلة العَدد والعُدد"[2].

كان المجتمع المدني (نسبة إلى المدينة المنوّرة) مؤلّفا من الأوس والخزرج وبينهما عداء قديم، واليهود وكانوا منقسمين على بعضهم، بعضهم مع الأوس وبعضهم مع الخزرج، وكان خصام القبيلتين العربيتين يخدمهم كثيرا، هذا بالإضافة إلى المهاجرين، وبالرّغم من هذا الخليط العجيب، تمكّن الرسول صلى الله عليه وسلّم بفضل الله تعالى من كتابة أول وثيقة سياسية في الإسلام بين هذه الأطراف كلها تمثّل الدستور الذي يتعايش به هؤلاء جميعا، وقد رضوا به[3].

هكذا إذا رُسمت المعالم الأولى لمسيرة انتشار الإسلام، فكانت تجربة التعايش في المدينة قدوة للمسلمين في مستقبلهم، وكانت المبادئ التي ذكرناها سببا من أسباب نجاح الفتح الإسلامي الذي كان رحيما على الشعوب، وكأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم لم يفارق أصحابه، فهو إن كان قد رحل إلى جوار ربه فإنّ رسالته باقية بقاء البشرية. وبالرغم مما قلناه؛ نجد بعض المغالطين من رجال الدين في الغرب يتهمون الفتح الإسلامي بالعنف مع المعارضين له، بل جعلوا ذلك سببا للانتقام، لكنّ ذلك لم يعكس الحقيقة التاريخية أبدا، "لقد كان الإسلام في عنفوان قوّته رحيما، وكما قال غوستاف لوبلون: إنّ العالم لم يعرف فاتحا أرحم من العرب"[4]. وفي هذا السياق

[1] سورة الأحزاب، الآية

[2] نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، محمد الحضري بك، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، بدون طبعة، ص 88.

[3] يراجع، الرسول صلى الله عليه وسلّم، سعيد حوّى، ص 187.

[4] يراجع، سرّ تأخّر العرب والمسلمين، محمد الغزالي، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر، 1406هـ- 1986م، ص 152، 153.

يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله عن تجربة الفتح في الجزائر: "هناك مواقف وتفاسير كثيرة في تاريخ المغرب العربي تحتاج إلى تصحيح وإعادة نظر. فمن الشائع عندنا مثلا أنّ البربر قد قاوموا «العرب» مقاومة شديدة أيّام الفتح الإسلامي. وقد روّج لهذه الفكرة الجهلة من المؤرّخين الأوّلين وتناقلتها الرواة بدون تساؤل أو تمحيص. وعندما جاءنا الاستعمار الأوربي الحديث (حديث بالنسبة للاستعمار الأوربي القديم أو الروماني والوندالي) وجد في تلك الرواية مادة خصبة فراح مؤرخوه يضخّمونها ويزيدون عليها وينسجون من حولها الأساطير، مستهدفين إحداث الشقاق بين أبناء البلد الواحد لكي يستريحوا هم ويطول بهم المقام"[1]، فهل كان الفتح فعلا بهذا العسر في الأراضي الجزائرية؟ وهل كانت العداوة بين الأمازيغ والعرب بهذا الشكل الذي رسمه الغرب.

هكذا إذن تُشوّه الحقيقة في مؤلّفات الآخر، فيوصف العربي بالظالم والمغتصب، والأمازيغي بالبربري المستسلم الخاضع، فهذا المستشرق غوته –مثلا– يقول: "...فإنّنا نلاحظ تسلسلا غير منقطع من التسلّطات الأجنبية: فالفرنسيون قد جاؤوا بعد الأتراك الذين جاؤوا بعد العرب الذين جاؤوا بعد البيزنتيين الذين جاؤوا بعد الوندال الذين جاؤوا بعد الرومان الذين جاؤوا بعد القرطاجيين، ويلاحظ أنّ الفاتح مهما كان يبقى سيد المغرب إلى أن يطرد من طرف الفاتح الجديد الذي يخلفه."[2] وكأنّ أمازيغ المغرب هم قوم لا يعيشون إلا تحت سلطة الاستعمار، ولا شكّ أنّ في تلك الآراء الزائفة دعوة معلنة موجهة لأمازيغ الجزائر خصوصا والمغرب العربي عموما كي يستسلموا للمستعمر الجديد (فرنسا) وينضموا إليه، إلا أنّ الجزائري في هذه الفترة لم يكن يُؤمن إلا بإسلامه وجنسيته، مما صعّب على المستعمر مهمّته.

[1] أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، أبو القاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978م، ص 5.

[2] ينظر، الجزائر بين الماضي والحاضر، أندري برنيان وأندري نوشي وإيف لاكوست، ترجمة إسطنبولي رابح ومنصف عاشور، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1984م، ص 65.

ولفهم حقيقة الاندماج الذي عرفه المجتمع الجزائري باختلاف أعراقه، لابد من الرجوع إلى الأمس البعيد، وبالتحديد إلى بداية الفتح الإسلامي للمنطقة، فبعد أن لقي الإسلام مكانا في قلوب سكان الجزيرة العربية، عزم المسلمون على إكمال الرسالة ونشر الإسلام عبر كل الأمصار، وانتشرت الفتوحات إلى أن وصلت إلى المغرب. فبعد محاولات عديدة تمَّ فتح إفريقية، ووُلي عقبة بن نافع الفهري عليها سنة 50هـ/669م من طرف الخليفة معاوية بن أبي سفيان[1]. لكن ولايته واجهت مشاكل جعلت مسلمة بن مخلد يتولى مكانه، وكان أول من حكم مصر وإفريقية معا. وهو من أرسل أبا المهاجر دينار الذي فتح الجزائر طلبا للتوسع[2]. حيث التقى بالملك الأمازيغي كسيلة الذي صادقه بعد أن حاربه وهزمه. وكان كسيلة مقرّرا لمصير الأمازيغ وصاحب الكلمة المسموعة. ثم عادت الولاية بعد ذلك إلى عقبة بن نافع الذي اختلف مع كسيلة، واستعمل طريق القوة، وكانت النتيجة أنه قُتِل من طرف كسيلة هذا[3] بمساندة من الكاهنة والأمازيغ[4].

وبالرغم من تواجد أبي المهاجر في السجن إلا أنه لم يتوان عن تقديم النصيحة لعقبة، حيث أكّد عليه ضرورة الاتفاق مع كسيلة وعدم استعمال الشّدة مع الأمازيغ، إلاّ أنّه لم يعط أي اهتمام لهذه المسألة، وكان ذلك سببا من أسباب فشله الذي انتهى بمقتله هو ومن معه جميعا[5].

[1] يراجع، المغرب الكبير – العصر الإسلامي – دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية، السيد عبد العزيز سالم، ص 195.

[2] يراجع، المصدر نفسه، ص 208...، 216.

[3] يراجع، المصدر نفسه، ص 228، 229.

[4] يراجع، مسيرة اللغة العربية في الجزائر – من الفتح الإسلامي إلى الاحتلال الفرنسي، مختارية بن قبلية، مجلة حوليات التراث، مجلة علمية محكّمة تعنى بمجالات التراث، جامعة مستغانم، الجزائر، العدد 11، 2011م، ص 58.

[5] يراجع، مختصر تاريخ الجزائر –السياسي والثقافي والاجتماعي، عبد الله شريط ومحمد مبارك الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م، ص 73، 74.

استمرت عملية الكر والفرّ بين العرب والأمازيغ، إلى أن قتلت الكاهنة، حيث دخل حسان بن النعمان الجزائر، وصلّح ما ارتكبه سابقوه من أخطاء. فاستمال الابن الأكبر للكاهنة وأعطاه ولاية الأوراس، وهناك وقع الاتفاق بين العرب والأمازيغ أخيرا.[1] ومن بين العوامل التي ساعدت على هذا الاتفاق هو اقتناع ابني الكاهنة بالغاية الشريفة من فتح الجزائر، حيث تأكدوا من كونها غاية دينية لا دنيوية، خاصة أنّ العرب تمسكوا بهذه الأرض حتى بعد حرق الكاهنة للمزارع قبل موتها ظنا منها أنّ المسلمين دخلوا طمعا في الثروات. وبعد الاتفاق بين العرقين، اعتنق ابني الكاهنة الإسلام، وكذلك معظم الأمازيغ، وتحسّنت العلاقات بين الجميع، حتى بعد عزل حسان بن النعمان وتعيين موسى بن نصير مكانه[2].

إنّ الحديث عن تلك الحروب التي جرت بين الأمازيغ والعرب في بداية الفتح يبقى في الكثير من جوانبه غامضا إلى حدّ ما، حيث يميل الكثير من المؤرّخين إلى اعتبار نوميديا (جزائر ما قبل الفتح) بلدا مستقلا يحكمه أهله، لكنّ الحقيقة التي يتحراها الدكتور أبو القاسم سعد الله والتي نراها سببا مهما من أسباب تفاهم الأمازيغ مع العرب هي أنّ نوميديا –حينها– كانت مستعمرة بيزنطية، والصراع الذي قام بين الجنود الأمازيغ والجنود العرب هو في الحقيقة صراع بيزنطي إسلامي وليس بالصراع الأمازيغي العربي؛ "وكان ذلك الصدام صداما «دوليا» بكل ما في هذا التعبير من معنى بمفهومنا الحديث، فالدولة البيزنطية، التي كانت تستعمر شمال أفريقية أيضا كانت تمثل القوة القديمة التي بدأها الضعف بينما الدولة الإسلامية الفتية كانت تمثل القوة الجديدة المنافسة. وكان لا بد من تصفية الحساب بين القوتين لأنّ البحر الأبيض والمنطقة الجغرافية الممتدة من الشام إلى جبل طارق لا تتسع لهما معا. فالحروب التي جرت على الساحة المذكورة لم تكن بين الفاتحين المسلمين وأهل تلك البلاد ولكنها كانت بين

[1] يراجع، الجزائر بين الماضي والحاضر، أندري برنيان وأندري نوشي وإيف لاكوست، ترجمة إسطنبولي رابح ومنصف عاشور، ص 240، ... 250.

[2] يراجع، مسيرة اللغة العربية في الجزائر – من الفتح الإسلامي إلى الاحتلال الفرنسي، مختارية بن قبلية، مجلة حوليات التراث، مجلة علمية محكّمة تعنى بمجالات التراث، جامعة مستغانم، الجزائر، العدد 11، 2011م، ص 58.

الفاتحين المسلمين والقوة البيزنطية المتسلّطة على تلك البلاد والتي كانت تخشى ضياع نفوذها الاقتصادي (الاستعمار) والمدني (المسيحي) إذا انتصر المسلمون"[1].

لما أحسّ الأمازيغ ببساطة هذا الدين الوافد إليهم، حاولوا فهمه والتعرف على مبادئه، فتعلموا العربية لبلوغ غايتهم، "إنّ هذا الإقبال على الإسلام بهذه السرعة قد أدهش كل المؤرّخين الغربيين، الذين لاحظوا أنّ الإسلام والعربية قد قضيا بسهولة على المحاولات التي بذلتها اللاتينية والمسيحية خلال قرون طويلة لربط مصير المغرب العربي[2] بالغرب الأوروبي. ولسنا في حاجة إلى الإلحاح على أنّ وضوح العقيدة الإسلامية وبساطتها ... دفع البربر إلى الإقبال على الإسلام واعتناقه."[3] خاصة إذا علمنا أنّ "الذين لم يدخلوا في دين الإسلام لم يُجبروا على دفع ضريبة الجزية التي هي دون الاغتصابات الضريبية البيزنطية بكثير –وزيادة على ذلك، فإنّ جماعات هامّة مسيحية أو يهودية استطاعت أن تحتفظ طويلا بإيمانها وأن تتمتّع مرارا بطمأنينة عجزت الدول المسيحية أن تُقدّمها لها"[4]. وكل هذا نجم من ذكاء العربي الفاتح وتطبيقه للشريعة الإسلامية على أصولها.

ومن أهم العوامل التي جذبت الأمازيغ إلى الإسلام؛ العدالة والمساواة التي نادى بها هذا الدين والتي أعطت حق الخلافة لكل مسلم تتوفر لديه الشروط المطلوبة بغض النظر عن عرقه، كما كان من حق الأمازيغ أن يثوروا على الخليفة إن خالف تعاليم الشّريعة[5]. أضف إلى ذلك أنّهم "اختلطوا بالعرب وتزوجوا معهم، فاتخذت كثرة

[1] أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، أبو القاسم سعد الله، ص 5، 6.

[2] المغرب العربي هي التسمية الحالية للمغرب الكبير.

[3] مختصر تاريخ الجزائر، عبد الله شريط ومحمد مبارك الميلي، ص 75.

[4] الجزائر بين الماضي والحاضر، أندري برنيان وأندري نوشي وإيف لاكوست، ترجمة إسطنبولي رابح ومنصف عاشور، ص 88، 89.

[5] يراجع، مسيرة اللغة العربية في الجزائر – من الفتح الإسلامي إلى الاحتلال الفرنسي، مختارية بن قبلية، مجلة حوليات التراث، مجلة علمية محكّمة تعنى بمجالات التراث، جامعة مستغانم، الجزائر، العدد 11، 2011م، ص 59.

من الأسر الإسلامية الجديدة أنسابا عربية ليدخلوا في الأرستقراطية الحاكمة."[1] في حين حافظت أسر أخرى على عرقها الأمازيغي إلى يومنا هذا.

هكذا إذا كانت بداية الحياة المنسجمة بين أبناء الجزائر تحت راية الإسلام، وهكذا استمرّت وستبقى بإذن الله، ذلك أنّ الشعب الجزائري لم يتخلّ يوما عن دينه وهويّته، حيث نجده اليوم يتبع الدين الإسلامي بنسبة تقترب من الكمال باستثناء بعض الأجانب المقيمين في البلد والمحافظين على دياناتهم الأصلية، وهم قلة قليلة لا تكاد تُذكر، وتحرص الجزائر حاليا على وحدة المذهب أيضا قدر الإمكان دون ضغط أو إجبار، حيث تعتمد المذهب المالكي، وهي تترك هذه المهمة لأئمة المساجد، لكنّ ذلك لا يعني منع الناس من التعرّف على المذاهب الأخرى أو الاستفادة منها، وبالرّغم من هذه الجهود التي تهدف إلى توحيد رأي المجتمع وإبعاده عن حياة الجدل والاختلاف؛ تسمح الدولة –مثلا– باتّباع المذهب الإباضي عند بعض القبائل، ذلك أنّ مسألة توحيد المذهب لا علاقة لها بالجانب السياسي، بل هو مجرّد إجراء تنظيمي تحرص عليه وزارة الشؤون الدينية الجزائرية، وهو غير محدّد بقانون رسمي.

وبالإضافة إلى المذهب الموحّد، نجد أنّ الرواية المعتمدة في قراءة القرآن الكريم في البلد أيضا موحّدة؛ وهي رواية ورش عن نافع، ووحدة القراءة هذه لها دورها أيضا في لمّ شمل الأفراد، كما أنّها تقي أصحاب الثقافة الدينية البسيطة من الوقوع في الالتباس، فأينما صلّى المصلي سيسمع الآيات الشريفة بالقراءة نفسها، وهذا أيضا –في رأيي– مجرّد إجراء تنظيمي يلمّ الشمل.

[1] علم اللغة العربية، مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية، محمود فهمي حجازي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ص 282.

وبالحديث عن مسألة المذاهب الدينية ودورها في لم شمل الجزائريين على اختلاف أعراقهم، نعود إلى الوراء، وبالضبط إلى فترة ما بعد الفتح الإسلامي، وهي الفترة التي اعتنق فيها الأمازيغ دين الإسلام وتشبثوا بتعاليمه التي جعلتهم لأوّل مرّة يتخلّصون من عقدة الدونية التي ألصقتها فيهم المستعمرات الأجنبية عبر العصور، خاصة أنّ هذا المجتمع أصبح يعيش تحت حكم جديد تتداخل فيه السلطة السياسية مع سلطان الدين، وكلّ ذلك أدى إلى اختيار أغلبية الجزائريين حينها للمذهب الخارجي الذي كان في اعتقادهم السبيل إلى الذهاب بالإسلام إلى أعماقه والرجوع به إلى بساطته ووضوح مبادئه التي كانت أكبر عامل من عوامل انتشاره بتلك السهولة وذلك اليسر.

كان المذهب الخارجي يدعو إلى المساواة المطلقة في ظل الإسلام وإلى أهلية كل مسلم لتقلّد منصب الخلافة إن توفّرت فيه شروطها، ويقول هذا المذهب أيضا بشرعية الثورة على الخليفة عندما يحيد عن كتاب الله وسنّة رسوله، وهذه الأمور عموما هي التي جعلت الأمازيغ يقفون مع الخوارج ضدّ الخلافة الرستمية، وعلى حساب المذاهب الخارجية المختلفة ظهر المذهب الإباضي[1]، والواضح أنّ هذا المذهب قد اتُبع في فترة معيّنة ولغرض معيّن فقط، وبالرغم من انقضاء الحاجة إلى الدعوة للمساواة والتعايش بعد تحقّقهما فعلا، إلا أنّ هذا المذهب لم يختف كلّيا من حياة الجزائريين، فهو كما قلنا سابقا لا يزال متّبعا إلى يومنا هذا عند نسبة قليلة جدا من أهل البلد.

ثار الأمازيغ على الحاكم في دمشق وبغداد طلبا للاستقلال، لكّنّ ذلك لم يؤثر أبدا على إسلامهم، بل العكس؛ فارتباطهم الوثيق بهذا الدين الجديد هو الذي جعلهم يطالبون بالحرية التامة المنصوص عليها في الشريعة

[1] يراجع، مختصر تاريخ الجزائر، عبد الله شريط ومحمد مبارك الميلي، ص 79، 80.

الإسلامية. وبعد استقلال المغرب الأوسط (الجزائر) عن المشرق عمل البلد على تطوير علاقته الثقافية والاقتصادية بهذا الأخير، كما عمل على تطوير أشكاله الثقافية الخاصة[1].

ظل سكان الجزائر يتّبعون المذهب الخارجي إلى أن دخل الفاطميون البلد، وكانت معاملتهم لأهله مختلفة، ويُقال أنّهم فرضوا عليهم جبايات قاسية استعملوها في تمويل حملاتهم إلى المشرق، فثار السكان ضدّ المذهب الشيعي بعدما كانوا من الخوارج قديما وبعدما انضمّوا إلى المذهب المالكي[2]، ودخلت البلد في صراعات جديدة لا نريد الحديث عنها هاهنا كي لا نبتعد عن موضوعنا الرئيس.

بالرغم من بعض المشاكل السياسية التي شهدتها البلاد بعد الفتح الإسلامي بسبب توالي الولايات، ظلّ الجانب الثقافي والعلمي في تطوّر مستمّر، ونبغ الكثير من العلماء في مختلف العلوم الدينية والدنيوية، وكان من بينهم الكثير من الأمازيغ، لاسيما أنّ منطقة بجاية الأمازيغية صارت قبلة للعلم، وبُرجا من أبراج الثقافة والحضارة الجزائرية، وقد نالت هذا الشرف في عهد الموحدين. ذلك أنّه "بنهاية دولة بني حماد (547 هـ) على أيدي الموحدين، ودخول المغرب الأوسط تحت نظام الحكم الجديد، أخذت بجاية تفتح صفحة جديدة من صفحات تاريخها الثقافي والسياسي والعمراني والعلمي. ففي هذا العصر، أصبحت معقلا من أهم معاقل الحركة العقلية التي عرفها الشمال الإفريقي، ينتقل إليه عشاق الأدب وطلاب العلم والمعرفة من مختلف المدن والقرى... وقِبلةً تهوى إليها أفئدة المسلمين من بلاد الأندلس غربا إلى أصفهان في بلاد العجم شرقا، فاستهوت ألباب عدد غير قليل من

[1] يراجع تفصيل ذلك –مع أخذ الحيطة من بعض الأفكار والمصطلحات الاستشراقية الخاطئة– في، الجزائر بين الماضي والحاضر، أندري برنيان وأندري نوشي وإيف لاكوست، ترجمة إسطنبولي رابح ومنصف عاشور، ص 92.

[2] يراجع تفصيل ذلك –مع أخذ الحيطة من بعض الأفكار والمصطلحات الاستشراقية الخاطئة– في، المرجع نفسه، ص 100.

مشاهير العلماء ومدرسي العلوم وأهل الفتوى والقضاء الأندلسيين والتونسيين والليبيين... كما نبغ في هذا العصر عدد من العلماء والشعراء والكتّاب الجزائريين الذين نشئوا في المدينة أو أخذوا عن شيوخها"[1].

هكذا؛ دخلت بجاية التاريخ من بابه الواسع، وصارت عاصمة فكرية ودينية، حتّى شبّهها بعض المؤرّخين الغربيين بمكّة الصغيرة[2]، ولكثرة العلماء الذين انتسبوا إليها؛ كتب العالم أحمد الغُبريني البجائي معجما خاصا يجمع فيه أعلام المدينة، وقد اعتمد في جمعه لمادة الكتاب على حصر أسماء أبناء بجاية والمقيمين بها والوافدين إليها من باقي نواحي المغرب الأوسط (الجزائر)، ومن المغرب والمشرق والأندلس. لذلك نجده يذكر أعلام قسنطينة ووهران وتلمسان وبونة... باعتبارهم قد زاروا بجاية لتحصيل العلم أو للتدريس أو للإقامة والاستقرار. وجاء هذا المعجم شاملا لمعظم العلوم والفنون السائدة في تلك الفترة، ولم يكن من السهل التمييز بين الأديب والفقيه والمفسر واللغوي وما شابه، فعلماء ذاك العصر قد نهلوا من كل العلوم والفنون وبرعوا في معظمها[3].

تتابعت الولايات على الجزائر، وظلّ مجتمعها محافظا على مقوّمات دينه وتقاليد أجداده، وكانت الحضارة في أوجها قبل الاستعمار الفرنسي، وكان التعليم متنوّعا، وعلى تنوّعه كانت كل المدارس على اختلاف تخصّصاتها تعلّم تلاميذها مبدأها المشترك: "وهو مبدأ التسامح والأخوّة الذي كان يعتبر هو روح الحياة الدينية والثقافية في البلاد. ومن أبرز علامات هذا التسامح أنّ كلّ طائفة تحتكم لدى قاض من مذهبها: الحنفية والمالكية، والميزابية.

[1] ينظر مقدمة عادل نويهض في كتاب: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، تحقيق وتعليق: عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط 2، أفريل 1979، ص 7، ويراجع تفصيل ذلك في، كتب التراجم الجزائرية: ذاكرة لا تموت، مختارية بن قبلية، بحث ملقى ضمن أعمال الملتقى الوطني حول: "مُسُاهَمَةُ الْجَزَائِرِيِّينَ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ الْقَدِيمِ"، جامعة تلمسان (الملحقة الجامعيّة مغنيّة)، يومي: 20- 21 نوفمبر 2012 (مخطوط تحت الطبع).

[2] يراجع، الجزائر بين الماضي والحاضر، أندري برنيان وأندري نوشي وإيف لاكوست، ترجمة إسطنبولي رابح ومنصف عاشور، ص 107.

[3] كتب التراجم الجزائرية: ذاكرة لا تموت، مختارية بن قبلية، بحث ملقى ضمن أعمال الملتقى الوطني حول: "مُسُاهَمَةُ الْجَزَائِرِيِّينَ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ الْقَدِيمِ"، جامعة تلمسان (الملحقة الجامعيّة مغنيّة)، يومي: 20- 21 نوفمبر 2012 (مخطوط تحت الطبع).

وحتى اليهود يحتكمون لدى الحبر. وكان لليهود مدارسهم الخاصة يعلمهم فيها رجال دينهم. وللعبيد السود ما يسمى «قائد الوصفان». ولم تكن أية فئة من هذه الفئات تشعر بالضغط من طرف فئة الأكثرية وهي فئة المالكية"[1]. وللعلم فإنّ اليهود الذين عاشوا مدّة طويلة في سلام مع المسلمين في الجزائر غادروها كلّيا مع مغادرة العدوّ الفرنسي بعد انتصار ثورة التحرير.

هكذا كانت الحياة الاجتماعية في جزائر الأمس، وما تزال إلى يومنا هذا، والجدير بالذّكر أنّ انصهار أفراد المجتمع لم يؤثر سلبا على ثقافة الأمازيغ، حيث حافظوا طول هذه السنين على لهجاتهم وتقاليدهم، وقد نرى ذلك جليّا في المناطق الأمازيغية مثل: "بجاية" و"تيزي وزو" و"باتنة" وغيرها من الولايات، أو في الحياة الأسريّة. أما بالنسبة للعرب فقد أخذوا بدورهم الكثير من عادات الأمازيغ، ولاسيما ما تعلّق بالمأكل والملبس، وهذا ما يميّز الحضارة الجزائرية التي شربت من منبعين متشابهين؛ فمنذ دخل العربي إلى هذه الأرض، لاحظ تشابها كبيرا بينه وبين العنصر الأمازيغي، وكان ذلك خاصة في نمط الحياة البدوية والقبلية والرعوية وما إلى ذلك، وفي هذا يرى ابن خلدون إنّ البربر (الأمازيغ) هم أشبه الخلق بالعرب[2]. وكان هذا التشابه عاملا من عوامل الاندماج بين الجنسين، "وكان من الممكن أن يؤدي هذا الاندماج إلى ذوبان العرب في البربر لولا أنّ اللقاء كان في إطار الإسلام والحضارة العربية الإسلامية، وبذا كان هذا الاندماج مشجعا على تعريب أكثر البربر في المغرب."[3] دون إهمال اللغة الأمازيغية طبعا.

ربما صار موضوع التعايش غير ملائم للطرح في يومنا هذا بعد انصهار أفراد المجتمع تحت ظلّ الإسلام، وكذلك بعد اختلاط الأنساب، لولا أهمية هذه القضية بالنسبة للكثير من الشعوب التي تسعى إلى السلام والأمن

[1] مختصر تاريخ الجزائر، عبد الله شريط ومحمد مبارك الميلي، ص 192.

[2] يراجع، تاريخ ابن خلدون، مؤسسة جمال، المصيطبة، بيروت، ج 7، ص 2.

[3] علم اللغة العربية، مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية، محمود فهمي حجازي، ص 284.

الداخليين، فتجربة الأمس في الجزائر هي التي جعلت مسألة الاندماج اليوم مثالية إلى حدّ ما، لكن ذلك لا يمنع من استمرار بذل الجهود قصد حماية نتائج هذه التجربة الناجحة بقوانين واضحة وصارمة، حيث يسعى الدستور الجزائري من خلال مختلف مواده إلى الحفاظ على الوحدة الوطنية، ولعل ما جاء في المادتين الثانية والثالثة خير دليل على ذلك؛ وهذا نصّهما[1]:

المادة 2: الإسلام دين الدولة.

المادة3: اللغة العربية هي اللغة الوطنية والرسمية.

المادة 3 (مكرر): تمازيغت[2] هي كذلك لغة وطنية. تعمل الدولة لترقيتها وتطويرها بكل تنوعاتها اللسانية المستعملة عبر التراب الوطني.

واختيار اللغة العربية كلغة رسمية يعود إلى كونها أولا لغة القرآن، وثانيا لأنّها اللغة المشتركة بين جميع الجزائريين، وثالثا لأنّها لغة التعامل مع الدول العربية والإسلامية، ومن هنا كانت العربية هي لغة التعليم والإعلام والإدارة... وهذا لا يُنقص أبدا من قيمة اللغة الأمازيغية عند متكلّميها، وفي هذا السياق تجدر بنا الإشارة إلى جهود الدولة في ترقية هذه اللغة، حيث خصصت لمن يريد تعلّمها مقرّرات تعليمية تُتبع في بعض المدارس، إلا أنّ كونها مجموعة من اللهجات جعل هذه العملية تمشي بعُسر. كما نجد تجارب أخرى أكثر نجاحا على مستوى بعض الجامعات والمختبرات الجزائرية تَخرَّج بفضلها رجال الإعلام والتعليم الناطقين بالأمازيغية.

[1] دستور الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، الجريدة رقم 76 المؤرخة في 8 ديسمبر1996، معدل بالقانون 02 - 03 الممضي في 10أبريل 2002، الجريدة رقم 25 المؤرخة في 14 أبريل 2002.

[2] أي: اللغة الأمازيغية.

أما على مستوى الإعلام فقد خصّصت الدولة منذ سنوات نشرات إخبارية وحصص متنوعة وأفلام وطنية مدبلجة... ناطقة باللغة الأمازيغية على القناة الجزائرية الوطنية، إلى أن خصّصت لمتكلّمي هذه اللغة قناةً وطنية أخرى خاصة بهم هي القناة الجزائرية الرابعة. كما لا يجب أن ننسى أيضا ما يقدّم من فقرات دينية ناطقة باللغة الأمازيغية على قناة القرآن الكريم (القناة الوطنية الخامسة).

وأخيرا أقول إنّ الأسباب الرئيسة في فشل أي تجربة تعايش بين فئتين مسلمتين تتلخّص عموما في الفهم الخاطئ للشريعة الإسلامية واتباع البدع وإعطاء الأولوية للعرق...، وهذا ما حدث لبعض العرب؛ لذلك نجد الشيخ محمد الغزالي رحمه الله يستنكر أنانية هؤلاء على الرغم من كونه عربيّا، ذلك أنّهم أخّروا الأخوّة الإسلامية عن الجنسية العربية، وهذا في رأيه هو الذي سيجرّ عليهم العار والنار في الدنيا والآخرة[1]. وأجمل ما يمكن أن أختم به هو قوله رحمه الله: "إنّ العمل للوحدة الإسلامية شرف باذخ، ومجد شامخ، ويجب على العرب قبل غيرهم من الأجناس التي تكوّن الأمّة الإسلامية الكبرى، أن يدركوا هذه الحقيقة وأن يربطوا ولاءهم بدينهم لا بجنسيتهم"[2] فما أحوجنا اليوم إلى مثل تلك العاطفة النبيلة التي تجعل الإسلام هو الوطن.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

[1] يراجع، سرّ تأخّر العرب والمسلمين، محمد الغزالي، ص 154.
[2] نفسه، ص 174.

1. أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، أبو القاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978م.

2. تاريخ ابن خلدون، مؤسسة جمال، المصيطبة، بيروت.

3. الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، شركة الشهاب، الجزائر.

4. الجزائر بين الماضي والحاضر، أندري برنيان وأندري نوشي وإيف لاكوست، ترجمة إسطنبولي رابح ومنصف عاشور، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1984م.

5. حوليات التراث، مجلة علمية محكّمة تعنى بمجالات التراث، جامعة مستغانم، الجزائر، مسيرة اللغة العربية في الجزائر – من الفتح الإسلامي إلى الاحتلال الفرنسي، مختارية بن قبلية، العدد 11، 2011م.

6. الرسول صلى الله عليه وسلّم، سعيد حوّى، دار عمار، بيروت – عُمّان، 1408هـ – 1988م.

7. الرقائق، محمد أحمد الراشد، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر، ط 2.

8. رياض الصالحين، أبو زكريا يحي بن شرف النووي الدمشقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1403هـ – 1983م.

9. سرّ تأخّر العرب والمسلمين، محمد الغزالي، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر، 1406هـ- 1986م.

10. صحيح البُخاري، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَردزبَه البخاري الجُعفي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 2، 1423هـ – 2002م، طبعة كاملة في مجلّد واحد.

11. علم اللغة العربية، مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية، محمود فهمي حجازي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.

12. عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، تحقيق وتعليق: عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط 2، أفريل 1979.

13. كتب التراجم الجزائرية: ذاكرة لا تموت، مختارية بن قبلية، بحث ملقى ضمن أعمال الملتقى الوطني حول: "مُسُاهَمَةُ الْجَزَائِرِيِّينَ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ الْقَدِيمِ"، جامعة تلمسان (الملحقة الجامعيّة مغنيّة)، يومي: 20-21 نوفمبر 2012 (مخطوط تحت الطبع).

14. مختصر تاريخ الجزائر -السياسي والثقافي والاجتماعي، عبد الله شريط ومحمد مبارك الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م.

15. مختصر سيرة ابن هشام (السيرة النبوية)، دار النهضة، بدون طبعة.

16. المغرب الكبير – العصر الإسلامي – دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية، السيد عبد العزيز سالم.

17. نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، محمد الحضري بك، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، بدون طبعة.